مسلك اللغة العربية
الفصل 5 / لسانيات
المادة: سيميائيات الخطاب والصورة
الأستاذ: محسن أعمار

الدراسات السيميائية بالمغرب

إذا كانت كل من نظرية دوسوسير[1] وبورس[2] قد شكلت اللبنات الأولى لإرساء معالم البحث السيميائي، فإن ما لحقها من إسهامات، وما تجاذبها من تأثيرات وإضافات على مدى ثلاثة عقود[3]، قد هيأ السبيل أمام السيميائيات كي تحدد إطار اشتغالها من خلال ما أنجزته من مفاهيم ونظريات أكسبت هذا الخطاب خصوصيته داخل حقل البحث العلمي. وبالرغم مما عرفه هذا الخطاب من فعالية وإجرائية في تحليلاته وتطبيقاته، فإنه لازال يبحث عن قدر من المشروعية العلمية نتيجة الأزمة التي تطال الأسس الإبستيمولوجية والأنطولوجية للعلامة[4].

ومما لاشك فيه، أن الوقوف عند خلفيات الاتجاه السيميائي في أسسه ومكوناته، يعتبر شرطا أساسيا للتعامل مع الخطاب السيميائي المغربي في الإطار الصحيح. إذ بدون النظر في معطيات هذا الاتجاه وظروف إنتاجه يظل عنصر الفهم والاستيعاب متعذرا. فمنذ محاولات فلاديمير بروب (1928)، إلى المحاولات الأكثر حداثة للسيميوطيقا السردية، اعتبر هذا الحقل من أنشط الحقول وأخصبها من حيث العطاء: (بارت ، تودوروف ، كريستيفا ، امبرطو إيكو ، ريفاتير ، ميتز ، كوكي، كورتيس ، راستي و كريماس... إلخ) فمادامت الجملة قابلة للوصف من الناحية المعجمية والتركيبية والدلالية، ومادام كل مستوى من هذه المستويات لا يمكنه أن يؤسس المعنى بمفرده، بل في علاقته بباقي المستويات الأخرى، فإن هذا المبدأ قابل للتطبيق كذلك على مختلف أشكال النصوص والخطابات ذلك أن النص أو الخطاب يحتوي "سيميائيا" على نفس المستويات، "لقد كانت هذه المبادئ (وغيرها) هي المنطلق الرئيسي نحو تأسيس لغة واصفة تمتد بجذورها في اللسانيات لكنها تسير نحو الانفصال عنها. إنها لغة واصفة تستند في تشكلها إلى الدرس اللساني، ولكنها تستمد مردوديتها التحليلية من النص وليس من الجملة..."[5].

Scanné avec CamScanner

ونتوقف عند علاقة اللسانيات بالسميوطيقا السردية، حيث يمكن إبراز وإحصاء المصطلحات والمفاهيم اللسانية الموظفة في التحليل، كما يمكن الوقوف على كيفية اشتغال النموذج اللساني في التحليل السيميوطيقي. وهنا تبرز أعمال كريماس Greimas في الحقل اللساني والسميائي معا، فقد وضع مؤلفه علم الدلالة البنيوية "Sémantique structurale" لإدماج اللسانيات في تنظير قضايا المعنى أو الدلالة, لينتقل فيما بعد إلى تأسيس سميوطيقا سردية لدراسة النصوص. ويمكن أن نميز بين خطين في أعمال كريماس، الأول يبرز من خلال تأثره الشديد بأعمال اللغوي يالمسليف (التفريق بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى) وبالنموذج الفونولوجي من خلال وضعه لمصطلح المعنم المقوم "le sème" على صورة مصطلح الفونيم، وأيضا من خلال اقتباسه لمصطلح العامل "actant" من اللغوي تنيير "Tesnter".

أما الخط الثاني، فيبرز من خلال أعمال كريماس المتأخرة :في المعنى "Du sens": حيث يبدو أثر النموذج التحويلي التوليدي جليا في هذه الأعمال ولو من الناحية الشكلية. فانطلاقا من منطق القواعد السياقية والتحويلية التي تتحكم في الانتقال من مستوى إلى آخر يؤسس كريماس مستوى البنية العميقة التي

Scanné avec CamScanner

تتحكم في النموذج التأسيسي (المربع السيميائي). ومستوى البنية السطحية حيث يشتغل النموذج العاملي. ثم مستوى تمظهر الخطاب (وحدات ومقاطع النص كما هي عليه) وهذا يعكس النموذج التشومسكوي بمستوياته الثلاثة المستوى العميق (تطبيق القواعد المقولية والتحويلية). المستوى السطحي (تطبيق القواعد المورفولوجية والفونولوجية). ومستوى تحقق الجملة. بالإضافة إلى توظيف مصطلحات أساسية في النظرية التوليدية: كالقدرة والإنجاز حيث يوظفها كريماس ضمن المكونات الأساسية للمركب السردي. وهذا لا يعني تشابه مطلق للنماذج، ولكن قراءة وتركيب النموذج الغريماسي لا يتحققان إلا بالرجوع إلى نظرية شومسكي.

لقد كانت هذه المبادئ هي المنطلق الرئيس نحو تأسيس لغة واصفة تستند في تشكلها إلى الدرس اللساني، لكنها تستمد إنتاجيتها التحليلية من النص وليس من الجملة، وهكذا يتحدث كريماس عن النحو التأسيسي "grammaire constitutionnelle" والنحو النصي "grammaire textuelle" والنحو السردي "grammaire narrative" وعن التركيب السردي "syntaxe narrative"، لقد حدد كريماس في كتابه علم الدلالة البنيوي (1966) الذي يعتبر أول نص نظري مركزي، الأصول النظرية التي ترتكز عليها مفاهيم ومصطلحات السميوطيقا السردية وتتمثل في المنطق الرياضي، والمنطق خاصة (أعمال بروندال) كما كان يذكر أثناء تحديد المفاهيم بالحقول العلمية والنظرية الأخرى التي ترتكز إليها النظرية السميائية كالفيزياء والكمياء (مفهوم التشاكل) "Isotopie" والبيولوجيا (التوليد، النمو، التشعب...) والجدل الهيجلي والبنيوية اللسانية والتوليدية والبنيوية الأنطروبولوجية وتشكل الحكاية الشعبية. وتظهر هذه الأصول في المفاهيم والمصطلحات المبنينة التي تندرج في الهيكل العام المتماسك للنظرية، كما حدد كريماس في هذا الكتاب المذكور:

أ- خلفيات وشروط قيام نظرية في الدلالة تتجاوز الجملة إلى الخطاب

ب- الأسس النظرية المختلفة التي تعتمدها النظرية

ج- جهاز المفاهيم والمصطلحات الأساسية في النظرية

د- النماذج التي تكون هيكل النظرية كالبنية العاملية، والبنية الأولية للدلالة.

Scanné avec CamScanner

لقد وضع كريماس هيكلا عاما يسمى المسار التوليدي 'Parcours generatif' ويشمل ثلاثة مستويات متعالقة فيما بينها تحكمها بنيتان:

1) البنية السميائية السردية وتتكون من:

أ – المستوى المورفولوجي (العميق): ويرصد البعد الدلالي والمنطقي.

ب – المستوى التركيبي: ويرصد التحويل من النظام المنطقي إلى نظام التركيب السردي.

2) البنية الخطابية وتتحدد في:

– مستوى التركيب الخطابي ويتحقق انطلاقا من الصوغ الخطابي للبنية السميائية السردية.

وفي ضوء هذه القواعد والتصورات المؤسسة للمقترب النظري والإجرائي، الذي يشتغل الخطاب السيميائي وفق ميكانيزماته وضوابطه، تتحدد عناصر الدرس السيميائي المغربي، وتبرز معاييره وقواعده. على أن الانضباط بتلك الشروط والقواعد السميائية المتعارف عليها، يأخذ في الدرس المغربي وجها آخر يمكن صياغته في شكل خطاب نظري وتطبيقي يحكمه تصور يكاد يكون ممتلكا لأدواته وآلياته ومفاهيمه التي تتراوح بين الأخذ والاستلهام والتوفيق والإفادة حينا، وبين التطويع والنقد والإضافة حينا آخر.

إن هذا الطرح يدفعنا إلى التساؤل عن وضع وخصوصية "المشروع النقدي السيميائي" بالمغرب سواء على مستوى المنهج والمصطلح أو على مستوى "الرؤية النقدية" الواضحة والمتفحصة. والإجابة على هذا السؤال تقتضي القيام بقراءة استقرائية[6] تقف عند كل دراسة تطبق أو "تدعي" المنهج السيميائي، ثم الانتقال بعد ذلك إلى إعداد مخطط إجمالي لنموذج عام. لكن طبيعة هذا العمل ليست بالسهولة التي نتصورها إذ لا مفر من حصر المتن المدروس وفي هذا إقصاء لأعمال أخرى.

وعموما، يمكن أن نميز بين نوعين من الدراسات:

الأولى، تفتقر إلى التماسك المنهجي ووضوح الرؤية، حيث يغلب عليها طابع التحوير والاختزال والتكرار والخلط بين المفاهيم وضعف الترجمة. أما الثانية، فنحددها في بعض الدراسات والأطروحات الجامعية التي تمثلت المنهج والنظرية السيميائية في شموليهما وتجانسهما، وهي قليلة، ونلمسها عند ثلة من الدارسين المغاربة يجمع بينهم التخصص والرغبة الملحة في الدفع بالدرس السيميائي إلى الأمام.

Scanné avec CamScanner

هناك دارس ___ اختار المرجعية السيميائية كمجال للدراسة والبحث، هو الأستاذ عبد المجيد نوسي. ويتجلى ذلك في الأطروحة المتميزة التي أنجزها الباحث سنة 1994 حول رواية اللجنة لصنع الله إبراهيم تحت عنوان: تحليل سيميوطيقي لرواية اللجنة تشييد مسار الدلالة[28]. وأهمية هذه الدراسة تكمن في استيفاء الباحث لكل الشروط والمستلزمات التي تفرضها النظرية الكريماسية، سواء من حيث الأصول والمنطلقات الإبستيمولوجية والمنهجية أو من حيث تمثل وتطبيق المفاهيم والأدوات الإجرائية على نص اللجنة. وقد حدد الباحث منهجه في أول صفحة من البحث قائلا: "وقد حرصنا بشكل جلي في المدخل أن المرجعية النظرية التي سنستند إليها في تحليل رواية اللجنة هي السيميوطيقا السردية ممثلة في أعمال المدرسة الفرنسية وخصوصا أعمال كريماس. وقد أوضحنا على هذا المستوى أننا نهدف إلى تبني المنهج السيميوطيقي برمته. وهذا يدل على أن العمل لن يتوقف عند الاستثمار الانتقائي لمستوى من مستوياتها... ولكنه يستثمر معطيات النظرية في تعالق كل مستوياتها...".

والباحث في هذا العمل يمر بمراحل متعددة: الاستيعاب والفهم والترجمة والشرح والتفسير، مع مراعاة انسجام وتماسك مستويات النظرية: المستوى المرفولوجي العميق، ومستوى التركيب السردي، ومستوى التركيب الخطابي. كما أن الباحث لم يغفل البعد النظري والإبيستيمولوجي الذي

يطرحه تطبيق أدوات ومفاهيم السميوطيقا السردية على خطاب الرواية، إذ يقول: "وقد أشرنا أيضا إلى منهج العمل في البحث والقاضي بالاستناد إلى الإطار النظري الذي حددته السميوطيقا ممثلا في المسار التوليدي وإلى ما يحيط به من شروط ومعايير علمية تمثلها خصائص الإجرائية والتماسك. وقمنا في بداية كل فصل بتحديد المفهوم الذي نستثمره في علاقته بالنظرية وبمسارها التوليدي، وحرصنا على أن يكون التحديد إشكاليا يطرح بعض الأسئلة... كما أشرنا إلى الأصول التي استلهمتها النظرية في تشييد جهازها المفاهيمي..."[29]. غير أن الإشكال الكبير الذي كان يشكل تحديا للدارس هو مدى تمثيلية نص اللجنة وقدرته على احتواء النظرية، بعبارة أخرى كيف تستطيع النظرية أن تفرض منهجها وجهازها المفاهيمي وأدواتها الإجرائية من خلال النص الواحد، دونما إخلال بالمقتضيات التي يتطلبها التماسك المنهجي للسميوطيقا السردية؟

أما الأستاذ سعيد بنكراد فقد حاول تقريب الدرس السيميائي إلى القراء، سواء من خلال الترجمة أو الدراسة، فقد قام في البداية بترجمة مقال فيليب هامون، تحت عنوان سيميولوجية الشخصيات الروائية[30]. بعد ذلك، أصدر كتاب مدخل إلى السيميائيات السردية[31] يعرف فيه بالنظرية الكريماسية وبأصولها منطلقا من الإرث البروبي. بعد ذلك، ينتقل إلى طرح الأسس النظرية المختلفة التي تعتمدها النظرية الكريماسية، وكذا جهاز المفاهيم الأساسية في النظرية، بالإضافة إلى النماذج التي تكون هيكل النظرية: كالنموذج التكويني والنموذج العاملي.

أما في كتاب شخصيات النص السردي –البناء الثقافي[32]– فقد حاول فيه سعيد بنكراد عرض النظرية السيميائية في مجال الشخصية. ففي الفصل النظري تطرق الباحث إلى أعمال بروب ولوتمان وكريماس، مع تقديم ملاحظات حول عملية الإمساك بالشخصية من خلال مستوى التجلي، وذلك من زاويتين: زاوية التلقي، فالقارئ يسهم في بناء الشخصية من خلال تحيين موسوعته الثقافية، ومن زاوية أشكال وتقنيات التشكل الظاهري للشخصية، اعتمادا على تصور فيليب هامون في هذا الميدان. في حين خصص الجزء الثاني من الكتاب، لتقديم دراسة تطبيقية حول الشخصيات من خلال رواية "الشراع والعاصفة" لحنا مينة. وهي عبارة عن دراسة للبناء العاملي والأدوار والوظائف والمسارات السردية، وتوزيع العلاقات بين الممثلين، إنها باختصار تطبيق محض للسيميائيات السردية في مستوى التركيب السردي والعاملي.

أما في سنة 1996 فسيصدر سعيد بنكراد كتابا مميزا تحت عنوان: النص السردي نحو سيميائيات للإديولوجيا[33]، ينطلق فيه الباحث من جملة من القضايا الخاصة بالتدليل والتسنين، كما

Scanné avec CamScanner

تبلوره آليات النص السردي عبر الإيديولوجيا والسرد وعالم الممكنات. إنما يقول الباحث: "أبعاد مكونة لماهية النص ومكونة لأسس تلقيه وتأويله وسبل التفاعل معه، فعبر هذه الآليات يتم استشراف الآفاق التي يفتحها "الوجه الخفي" للدلالة أمام مسارات التأويل والقراءات المتنوعة[34].

والباحث يحاول من خلال هذه الدراسة، الإجابة كذلك على أسئلة عميقة من قبيل: كيف يأتي المعنى إلى النص انطلاقا من الوضع الإيديولوجي؟ وكيف تأتي الإيديولوجيا إلى المعنى؟ إن أشكال التحقق المتولدة عن "سنن كلي"، هي -في نظره- التعريف السيميولوجي الذي يمكن أن يعطى للإيديولوجيا. والقضايا التي يعالجها هذا الكتاب تنطلق من هذا التصور، أي من إمكانية تحديد "تخوم سيميائيات الإيديولوجيا"، انطلاقا من كل المعطيات النظرية التي جاءت بها السرديات المعاصرة بكل أنوعها.

ولتوضيح طبيعة اشتغال التسنين الإيديولوجي، يقدم الباحث دراستين تطبيقيتين: الأولى عبارة عن قراءة للضوء الهارب لمحمد برادة، حاول فيها الباحث استخراج القواعد السردية التي تحكمت في بناء الشكل الروائي العام، من خلال بناء "المشهد الجنسي"، باعتباره الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الفعل السردي. كما حاول الباحث أن يكشف عن "الواقع الإيديولوجي"، من خلال تسريد الجسد عبر ثنائية المذكر والمؤنث.

أما الدراسة الثانية فخصصها الباحث لرواية الشراع والعاصفة لحنا مينة، حيث حاول من خلال هذه القراءة أن يسلط الضوء على ما أسماه "بزمن الاستئناس"، الذي يتجلى عبر الطابع الأطروحي الذي يتحكم في بناء الرواية من حيث هي خزان للقيم، ومن حيث هي نمط في البناء والتلقي.

ويلاحظ على هذه الدراسة الحضور القوي لباحثين ومنظرين غربيين كإيكو وكريماس وبورس وبارت وفلاديمير كريزنسكي وايزر وغيرهم.

بعد هذا العرض الموجز للوضع السيميائي بالمغرب نقف الآن عند بعض الخصائص المشتركة بين هذه الدراسات، أولاها محاولة تقليص المسافة بين مفاهيم ومصطلحات مستمدة من سياقات ثقافية مغايرة للثقافة العربية، وبين معطيات النصوص الأدبية بحمولتها اللغوية والثقافية. كما تشترك هذه الدراسات في عملية ضبط المفاهيم، وتدقيق المصطلحات، وطرح النظرية قبل وضعها على محك التطبيق. كما أن الاختيارات المنهجية والطروحات النظرية التي نحجها هؤلاء الدارسون، تضع القارئ أمام ترسانة هائلة من المفاهيم والإجراءات، غير متداولة في لغته وفي سياقه الثقافي.

Scanné avec CamScanner

هناك ملاحظة أخرى تتجلى في كون بعض الأعمال يغلب عليها طابع التلخيص واختزال النظرية، كما أن التطبيقات تكون مجتزأة تركز على جانب وتغفل جوانب أخرى. هذا بالإضافة إلى اعتماد مدارس متعددة في الدراسة، مما يسقط هذه الأخيرة في التوفيق والانتقاء، ويظهر هذا بوضوح في أعمال محمد مفتاح، حيث نلاحظ تباينا على مستوى الطروحات النظرية، وكذلك على مستوى المواضيع والمتون والأجناس الأدبية. بالإضافة إلى الجمع بين مناهج وطروحات بلاغية ونقدية عربية قديمة، وبين مناهج ونظريات نقدية غربية معاصرة، تنتمي لاتجاهات متعددة في النقد الأدبي والبلاغة الحديثة والبنيوية والسيميائية ونظرية التلقي والذكاء الاصطناعي وتحليل الخطاب... الخ.

وعموما، فالمشروع السيميائي على مستوى الدرس الأدبي بالمغرب، بالرغم من المجهودات المبذولة لازال يبدو متعثرا بعض الشيء، نتيجة غياب التراكم الكمي والنوعي الذي يسمح بالوصف والتصنيف، فمصادره تكاد تنحصر في بعض الأعمال الجامعية، وفي بعض الدراسات والمقالات التي تصدر متفرقة من حين لآخر. وهنا لابد من الإشارة إلى الدور الإيجابي الذي تضطلع به مجلة "علامات"[35] التي يشرف على إدارتها الأستاذ سعيد بنكراد، كمجلة رائدة ومتخصصة في قضايا الخطاب السيميائي.

هناك أيضا غياب الترجمة المواكبة للمستجدات في حقل السيميولوجيا، مع تباين واختلاف في ترجمة المفاهيم والمصطلحات. وهذا راجع بالأساس، إلى عدم وجود معاجم وقواميس عربية متخصصة في مجال الدراسات اللغوية والسيميائية والأدبية المعاصرة.

الهوامش:

1. لم يعمق فردناند دوسوسير F. De Saussure (1857، 1914) بحثه في السيميولوجيا، بل اكتفى فقط بتقديم تصور عام لهذا العلم ولموضوعه ومنهجه. وينطلق دوسوسير في تصوره للسيميولوجيا من الأنساق الدلالية المكونة من الدوال والمدلولات التي تؤدي وظيفة التعبير عن الأفكار الرمزية داخل المجتمعات المختلفة. انظر كتاب: Cours de linguistique générale, Payot, Paris, pp. 33, 34

2. لم يكن تشارلز ساندرس بورس C.S. Peirce (1839، 1914) عالما لغويا، بل كان فيلسوفا ورياضيا اهتم بالمنطق والرياضيات والفينومينولوجيا يقول "إن المنطق بمعناه العام... ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا، إنه النظرية شبه الضرورية أو الشكلية للعلامات..." والسميوطيقا عند بورس هي "نظرية الطبيعة الجوهرية لكل سيميوزيس ممكن وتنوعاته الأساسية". والسيميوزيس يحتوي على ثلاثة أبعاد: الممثل، والمؤول والموضوع. انظر كتاب بورس: Ecrits sur le signe, Seuil, Paris, 1978.

Scanné avec CamScanner